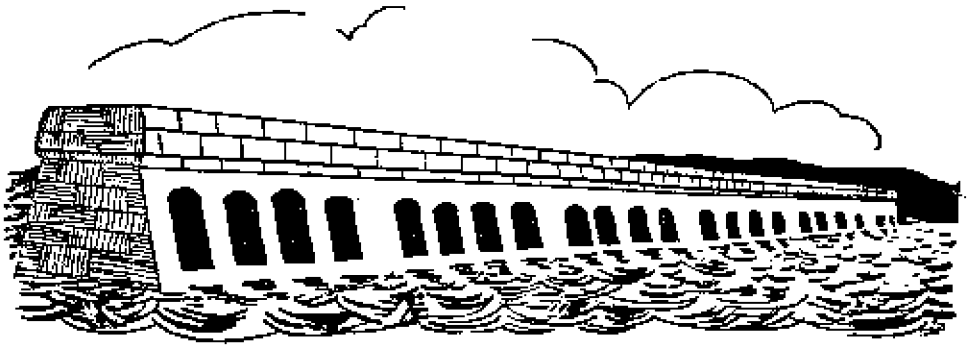

خزان جبل اوليا

لمنا غبار

استخدام الانسان قوى الطبيعة في مصلحته عمل من أفضل ضروب النضال البشري على سطح هذا السيار . فأول ثمار الفلسفة استغلال الماء والهواء والتراب والنار ، والاستعانة بهذي الاشياء لتوفير القوة وتخفيف العناء . كان ذلك ديدن الانسان منذ العصور الخالية ، وسيظل كذلك وقد بلغ ذرى المدنية والعمران . بل ان الانسان ليزداد في ذلك ما زاد اغراقاً في مناحي المدنية والارتقاء . فان تقدم العلوم ، وتزايد الاختبار ، يزيدان الانسان حولا في ميدان الطبيعة ، فيمكن من كشف اسرارها ، وسبر اغوارها ، وحل رموزها ، واستخراج كنوزها . كان ذلك شأن المصريين في عهد الفراعين العظام ، فلا غرو اذا أعاد أحفادهم الكرة على مناهج السلف الكريم يوم كانت المدنية في مهدها ، يوم ترعرع في وادي النيل فنون الزراعة والري والمساحة والهندسة والبناء والارصاد الفلكية

تجلت لي هذه الحقيقة يوم جئت خزان جبل أولياء قبل سنتين ونصف من الزمان ، فوقعت العين على أبدع حركة ، وأقدس حركة ، رأيتها في الحياة ، ورأيت ما كان يجري تحت سماء النيل الابيض من آثار الهمة القعساء ، حركة انشائية لم يسبق لها نظير في هاتيك الديار منذ درّ فجر العمران . فكان في ميدان جبل أولياء ، على النيل الابيض خليط من انكليز والمان وايطاليان ويونان وأرمن وحبشان وسودان ومصريين وسوريين ، وغير هؤلاء من طوائف البشر وأساطها ، وقد تسلحوا بأحدث مستنبطات العلم والفن والصناعة ، من محركات ، وناقلات ، ورافعات ، وماخرات ، وحافرات ، وحاطبات ، فحولوا بها البحر يبساً واليبس بحراً ، والغور جبلاً والجبل غوراً . وكانت المئات والالوف تعمل في حوض النهر تحت سطح الماء أمتاراً ، والماء من حولهم كالجبال الشاهقة تشكها الحواجز والسدود الوقتية ، وقد هبطوا الى قاع النيل يحفرون ويقرون ويشيدون ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فبدت لي حينذاك سلطة الانسان على الطبيعة عسوسة ملموسة ، يستقل مقدرتها ناعم البال . مبلغ كهذا لم يدركه الفراعين العظام ، ولم يشهده وادي النيل في ما سلف من العصور . هذا هو خزان جبل أولياء وصحته « أولي » ولكنه كتب « اوليا » في البيانات الرسمية الاولى ولم يغير

للخزانات غرضان ، ثانوي وجوهري . فالغرض الثانوي هو وقاية البلاد من غوائل الفيضان ، ولا سيما في أوقات تجاوزه الحدود العادية وتهديده البلاد بالدمار . ومصلحة الري العمومية تنظر الى هذا الغرض بعين العناية كجزء جوهري من التزاماتها ، والغرض الجوهري هو تخزين مقدار وافر من المياه ، وحبسه أمام السد لاستخدامه في ري الاطيان الزراعية في أوقات انخفاض مستوى النهر وعجزه عن امداد المزروعات بالقدر الكافي من المياه

أنشىء أول عمل من هذا النوع على النيل في عهد محمد علي الكبير ، رأس الاسرة المالكة في مصر . أريد بذلك القناطر الخيرية ، في النصف الاول من القرن الماضي . وكانت القناطر الحلقة الاولى في سلسلة انشاءات الري . تلتها الحلقة الثانية في خزان أسوان في أوائل القرن الحالي ، ثم قناطر اسيوط ونجع حمادى وخزان مكوار . وأخيراً في خزان جبل أولياء هذا ، الواقع على النيل الابيض جنوبي مدينة الخرطوم نحو خمسين كيلو متراً أو أقل قليلاً

وأقسم الكلام فيه الى أربعة أقسام هي تاريخ هذا المسعى : الاعمال التمهيدية : أوصاف الخزان : مغازيه الروحية

١ — تاريخ هذا المسعى

قام السر وليم غارستن الشهير ، المستشار الفني في وزارة الاشغال المصرية العمومية ، برحلة كبيرة في وادي النيل ، في مستهل القرن العشرين ، وعلى اثر استرداد السودان واستقرار الحال فيه . فجاب من تلك الاصقاع ما دنا وما نأى . ووافق فروعه الى مصادرها في جبال الحبشة وبحيرة طانا مصدر النيل الازرق ، وفي البحيرات الاستوائية مصدر النيل الابيض . وصعد في بحر الجبل ، وبحر سوباط . وجاء الجزيرة جنوبي الخرطوم . وتخطاها شمالاً الى حدود اسوان . ووضع تقريراً مطولاً ضمنه آراءه في هذا الشأن ، وقد اسماه « الدليل في موارد اعالي النيل » . بسط فيه الكلام في انماء الثروة ، وتوافر دواعي طمأنة الانسان وتأمين حياته . تلك اول احلام الانسان العاقل وهي اول حوافز ارتقائه . واشار غارستن في ما اشار الى انشاء خزان على النيل الابيض عند جبل اولياء . ذلك اول خبر سطع على هذ المسعى في التاريخ . تلا ذلك انشاء الحكومة المصرية مصلحة الري في الخرطوم سنة ١٩٠٥ ، فجاء ذلك باعثاً على الاستزادة من المعلومات المختصة بالري وتخزين المياه ، والاكتشاف كثير من الاقاليم المجهولة . فثبت لمصلحة الري ان خزان اسوان لا يسد حاجة القطر المصري ، فيلزم انشاء خزان على النيل الابيض عند جبل اولياء . وهذي كانت الخطوة الثانية في تاريخ هذا المسعى الجليل الشأن . وقد كان الباعث عليها نقص الفيضان سنة ١٩١٣ وانخفاض النيل سنة ١٩١٤ الى أوطأ ما عرف في القرنين الاخيرين ، فعجز النيل سنة ١٩١٤ عن سد مطالب الري الضرورية فعرج ذلك بهمم رجال الري الى التفكر

في انشاء هذا الخزان تداركاً للخطر قبل وقوعه. وعلى هذا الاساس عرض اسميل سري باشا، وزير الاشغال على مجلس الوزراء « مشروع خزان جبل اولياء » وذلك في شهر مايو سنة ١٩١٤

(المعارضة) لم يلق مسعى في الارض ما لقيه هذا المسعى من المعارضة والمقاومة. وكانت تلك المعارضة سياسية في أساسها، فنية في مستندها. وليس من اغراضي الدخول في الموضوع من ناحيته السياسية. فقد قال اسميل سري باشا رحمة الله عليه: « ان من سوء الحظ ادخال السياسة في مسعى كهذا ». ولما كانت المعارضة قد استندت الى تصريحات فاه بها السر وليم ولكوكس، ومعلوم ماهذا الرجل من عظيم الشأن والمكانة العالية في هذا الباب، بناء عليه الفت الحكومة البريطانية لجنة خاصة من بارزي المهندسين للنظر في تصريحاته. واعضاء تلك اللجنة هم: —

١: السر موريس فتز موريس رئيس معهد المهندسين سابقاً
٢: السر ر. بنون مفتش عام الري في جنوب افريقيا سابقاً
٣: السر وليم فارستن مستشار وزارة الاشغال العمومية المصرية سابقاً
٤: السر ارثر وب مستشار وزارة الاشغال العمومية المصرية سابقاً
٥: الاستاذ كوتن رئيس معهد المهندسين الملكيين، وصاحب تأليف في الهيدروليكا والحياة
٦: الكولونيل ليون المدير العام لمصلحة المساحة المصرية، ونائب مدير مصلحة الارصاد الجوية سابقاً. واضافت الى هذه الهيئة القاضي بوث للنظر في الاتهامات من وجهة قضائية. فكانت نتيجة بحث هذي اللجنة في مصلحة المسعى ودفع الاتهامات. ولما برزت المعارضة في وجه الحكومة المصرية عينت هي ايضاً لجنة دولية لدرس الموضوع وتقديم تقريرعنه، واعضاؤها هم:

١: المستر جي رئيساً — رشحته حكومة الهند
٢: المستر كوري عضواً — رشحته حكومة الولايات المتحدة
٣: الدكتور كمبسن عضواً — رشحته جامعة كمبريدج
٤: السكرتير كايبس — استاذ في مدرسة الهندسة الملكية

قامت هذي اللجنة برحلة في اعالي النيل الابيض. ودرست الموضوع من كل جهاته. وقدمت عنه تقريراً ضافياً أسمته « تقرير لجنة مشروعات النيل » لخصه المستر داوسن مساعد المستشار المالي، لتسهيل مراجعته. وذلك في دسمبر سنة ١٩٢٠. وقد ايد ذلك التقرير انشاء خزان جبل اولياء

فشرعت الحكومة المصرية في العمل وشادت البيوت والمنابر في منطقة جبل اولياء لسكن المهندسين والمقاولين. واقفت على تلك المباني ما يقرب من مليون جنيه. الا ان العمل توقف في وزارة عدلي يكن باشا في ٢٥ مايو سنة ١٩٢١ لاسباب مالية. وفي آخر ذلك العام ندبت الحكومة المصرية المستر ديبوى. مستشار وزارة الاشغال يومذاك، مع جماعة من المهندسين، في عدادهم عبد الحميد باشا سليمان وللمستر برسي، فقدمت تقريراً باسم « تقرير ديبوى »

طبع سنة ١٩٢٥ وزار المستر فتزموريس موقع جبل اولياء سنة ١٩٢٤ يصحبه مستر نوتنهام وكيل وزارة الاشغال . وهو ايضاً نظم تقريراً في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤

وتألفت لجنة دولية للنظر في توزيع مياه النيل بين مصر والسودان . واعضاؤها هم : —

١ : المستر كنتر كريمر رئيساً — هولندي — ٢ : المستر ماكجريجور — عن الحكومة البريطانية ٣ : عبد الحميد باشا سليمان عن الحكومة المصرية

وأضافت الحكومة المصرية الى هذي اللجنة لجنة مساعدة مؤلفة من عبد الحميد باشا عمر وعبدالقوي بك احمد . وكانت هذي اللجنة خطوة كبيرة الى الامام في أمر هذا الخزان

وشكل اسمعيل سري باشا سنة ١٩٢٦ لجنة مؤلفة من أحد عشر عضواً برآسة صالح عنان باشا لفحص تقرير لجنة النيل ، وكان سكرتير هذي اللجنة عبد القوي بك أحمد

وبعد مراجعة هذه اللجنة التقرير رفع رئيسها بانه الى عثمان محرم باشا خلف اسمعيل سري باشا في وزارة الاشغال . وقدم الوزير عثمان محرم باشا سنة ١٩٢٦ ، ثم خلفه ابرهيم فهمي باشا سنة ١٩٢٨ ذلك التقرير لمجلس الوزراء . وهو يرمي الى اعتبار تقرير لجنة النيل مرعيًا في جميع مبادئه ، ثم طلب الى مجلس الري الأعلى سنة ١٩٢٩ ان يبدي رأيه في الامر فقرر ذلك المجلس « ان انشاء خزان عند جبل أولياء مسألة أساسية للتوسع الزراعي في مصر » . ومجلس الري الأعلى مؤلف من غالب عثمان بك رئيساً ، وهو مفتش عمومي الري في الوجه القبلي ، ومعه تسعة أعضاء ، خمسة منهم مصريون وأربعة انكليز

وفي ٧ مايو سنة ١٩٢٩ عقد اتفاق تقسيم مياه النيل بين مصر والسودان . وجاء في رد المفوض السامي اللورد جورج لويد على رئيس الوزارة المصرية ما نصه : —

« ان حكومة جلالة الملك سبق لها الاعتراف بحق مصر الطبيعي والتاريخي في مياه النيل واني أقرر انها تعتبر المحافظة على الحقوق مبدءاً اساسياً للسياسة البريطانية في الشرق »

وصدر قرار وزارة الاشغال سنة ١٩٢٩ مختوماً بهذي العبارة : «رأى المجلس ضرورة اقامة خزان جبل أولياء ، واتفق الجميع في وجوب التعجيل في انشائه» وفي ٣٠ يناير سنة ١٩٣٢ أحالت وزارة اسمعيل صدقي باشا الى مجلس النواب مرسوماً ملكيًا بمشروع قانون باعتماد خزان جبل أولياء ، فألف المجلس لجنة خاصة لدرس الموضوع وتمحيصه ، واعطاء قرار بهذا الشأن . وكان اعضاء اللجنة البرلمانية سبعة عشر عضواً . فعقدت تلك اللجنة ١٧ جلسة لمناقشة الموضوع ، من أول مارس ١٩٣٢ الى ٩ مايو ، وكان مندوب الحكومة لدى اللجنة في كل تلك الجلسات عبد القوي بك احمد . فتلقى الاسئلة والاعتراضات في كل جلسة ، فأجاب عن هذي ، ورد تلك ، وقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . وأخيراً استدعت اللجنة وزير الاشغال ورئيس الوزراء فحضرا جلسة ٢٤ مارس يصحبهما وزير المالية

وفي الختام رفعت اللجنة لمجلس النواب تقريراً بهذا الشأن يشغل ١٤ صفحة كبيرة فناقش النواب في التقرير ثلاثة ايام . وختمت مناقشاتهم بخطبة مشجعة من رئيس الوزارة في ٢٣ مايو ، قال فيها « لا دخل للسياسة في انشاء هذا الخزان ولا خطر على مالية

جانب من سطح السد بعد انهياره

الدولة بسبب النفقات المرصودة له » . وحينذاك اعلن رئيس البرلمان محمد توفيق رفعت باشا ان المناقشات قد ختمت وطلب التصويت فصار المشروع باغلبية ١١٣ صوتاً ضد ١٦ صوتاً . عندئذ رفع الرئيس كتاباً بهذا الشأن الى مجلس الشيوخ حسب الاصول البرلمانية . فحوّل مجلس الشيوخ الموضوع الى لجنة الاشغال في مجلس الشيوخ برآسة اسمعيل سري باشا ، واضاف المجلس الى تلك اللجنة الذوات الآتية اسماؤهم

(١) قليني باشا (٢) حبيب دوس بك (٣) محمود بك ابو النصر (٤) اللواء عبد المجيد فريد باشا (٥) عبد الرحمن رضا باشا (٦) اللواء محمود عزمي باشا (٧) اللواء صادق يحيى باشا (٨) ادوار قصيري بك (٩) اللواء علي احمد باشا (١٠) محمد احمد عبود باشا

فبحثت اللجنة المزدوجة الموضوع بحثاً كافياً . ونظرت في كل نقاطه وفروعه من وجهاته العديدة ، وشغلت جلساتها اسبوعين من ٢٦ مايو الى ١١ يونيو سنة ١٩٣٢ ، حضر بعضها رئيس الوزراء مع وزير الاشغال العمومية . وختمت اعمالها باقرار القانون ، ورفعت تقريرها الى المجلس . فناقش المجلس فيه من ١٤ يونيه الى ١٧ منه ، وأقره باكثرية ٧٤ صوتاً ضد ٤ اصوات فتكون الاكثرية الاصوات في مجلس النواب بنسبة ٩ الى ١ وفي مجلس الشيوخ بنسبة ١٨ الى ١

واراني من واجبي كمؤرخ صادق ، يحرص على الحقيقة ، وعلى كرامة الدولة ونزاهة رجالها ، ارى ان اثبت هنا « ان خزان جبل اولياء مسعى مصري ، ايّدته فكرة مصرية غير مستعارة ، ولا مستهواة ، ولا واهمة ، وقد سارت إبّانه سيراً برلمانيًّا حرًّا قانونيًّا ، بنور العلم والفن ، وصدق بالتصويت الحر حائزاً الاكثرية الساحقة وكانت للمعارضة الحرية التامة لايراد كل ما يمكن ايراده ضده . وقد ردت عليها الوزارة رداً علميًّا صحيحاً فلم يبق ثمة مجال للمراء » . هذا هو خزان جبل اولياء وصدر القانون باعتماده في ١٩ يونيو ونشر في « الوقائع المصرية » الصادرة في يونية سنة ١٩٣٢ وهذي صورته

القانون رقم ١٩ سنة ١٩٣٢ باعتماد انشاء خزان جبل الاولياء

نحن فؤاد الاول ملك مصر

قرر مجلس الشيوخ ومجلس النواب القانون الآتي نصه وقد صدقنا عليه

مادة ١ : يعتمد انشاء خزان جبل الأولياء في السودان على الوجه المبين بمذكرة وزارة الاشغال العمومية الى مجلس الوزراء في ٣ يناير سنة ١٩٣٢

مادة ٢ : على وزير الاشغال العمومية تنفيذ هذا القانون . تأمر بيصم هذا القانون بخاتم الدولة وان ينشر في الجريدة الرسمية

صدر في سراي القبة في ١٥ صفر سنة ١٣٥١ (١٩ يونيه سنة ١٩٣٢) وتنفذ كقانون من قوانين الدولة

فؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك

رئيس مجلس الوزراء — اسمعيل صدقي

وزير الاشغال العمومية

ابرهيم فهمي كريم

بعد ذلك طرحت الوزارة انشاء الخزان للعطاءات . ولدى فحص ما تقدم اليها من تلك العطاءات — بحسب الاصول المرعية — قبلت عطاء السر جيمس الانكليزي ، مشترطة عليه ان يعقد شركة مالية قديرة ، تضمن تحمل اعباء العمل . فعقدت شركة جيمس وجرين مساهمة وشرعت الشركة في انشاء الخزان في خريف سنة ١٩٣٣ على ان تتمه في خلال ٤ سنوات وتسلمه للدولة المصرية في يوليه سنة ١٩٣٧ . والمبلغ الذي تدفعه الدولة المصرية له هو ٢١٠٠٠٠٠ جنيه مصري

٢ — الاعمال التمهيدية

ان الاعمال التمهيدية التي يستلزمها انشاء خزان كهذا هي كبيرة مضرعة . ومن لم يرها قد لا يصدق ما يسمعه عنها . واليك لمحة مختصرة تكشف عن خطورة تلك الاعمال

﴿ ١ : المساكن للمتعهدين والموظفين وخلافهم ﴾ سلمت حكومة السودان للدولة المصرية شقة من الارض ، على ضفاف النيل الابيض ، حول جبل اولياء ، فسورتها الحكومة المصرية بالاسلاك ، ودعتها بالمستعمرة المصرية ، وللمستعمرة المصرية اربعة ابواب ، يقيم الحفر في كل باب ، ولا يؤذن بالدخول اليها الا لمن تجيزه الادارة من موظفين وعامل وزائر ومقاول الخ

وقد شيدت ضمن السور مبانٍ عديدة ، من بيوت وعنابر وقطيات (حجر مستقلة) ومخازن للري ومكاتب ومستشفى ونحو ذلك ، لسكن موظفي الري ، ومهندسي الخزان من مصريين وغير مصريين ، ولسكن المتعهدين والمقاولين والملتزمين والملاحظين وغيرهم . فكان هنالك بلدة واسعة الجناب ، تفصل بين أبنيتها ساحات فسيحة ، وشوارع عريضة ، تنيرها الكهربائية ليلاً . وقد سورت بيوتها بأشجار الثمر الهندي ، أو أشجار السيسبان بحيث لا يرى المارة ما ضمن تلك الاسوار الخضراء . وزينت البيوت بالحدائق والمروج ، والشوارع بالاشجار على الجانبين . وأقيمت على خدمة البيوت جماعات الفراشين والبساتيين . دام ذلك كل المدة منذ سنة ١٩٢٠ الى انتهاء بناء الخزان ، وقد أنفقت الدولة المصرية على ذلك ما لا يقل عن مليون جنيه . وقد شملت تلك المباني بالعناية الصحية التامة منعاً للامراض ، ولتولد البعوض الضار في الاقاليم الحارة

﴿ ٢ : المياه ﴾ وقد أمدت تلك المباني بجهازين من الماء . الاول لحمل ماء النيل كما هو الى البيوت لسقيا الحدائق وأعمال التنظيف . والثاني لأجل ماء الشرب ، بعد تصفيته وتطهيره بحسب القواعد الصحية ، وتحت المراقبة الطبية . وقد مدت أنابيب الماء الى كل بيت في المستعمرة وجهزت بالحنفيات والمصارف لحمل المياه الغدرة الى الخارج ، بحيث لا يحتاج ساكنوها الى أي نفقة او عناء

﴿ ٣ : الكهربائية ﴾ وهي تراد لأمرين ، التنوير والمحركات لادارة الآلات . فأنشيء معمل كبير لتوليد الكهربائية ، فيه مكنات كبيرة ، يقوم على ادارتها واصلاحها خبراء اخصائيون وكان على القوة الكهربائية المعول في بناء الخزان علاوة على تنوير الشوارع والبيوت ، وكانت أعمال الكهربائية مستمرة بلا انقطاع ليلا ونهاراً كل مدة بناء الخزان

(٤ : الثلج) وكان من الضروري ، في وسط سوداني حار ، توفير الثلج للتبريد ، وللاعمال الصحية . ولذا أنشيء أيضاً معمل للثلج ، بقوة الكهربائية ، كان يصدر يوميًا ما لا يقل عن ٤٠٠ كيلو جرام من الجليد عدا ذلك كان عند كثيرين من كبار الموظفين ثلاجات كهربائية في البيوت

(٥ : المستشفى) والمستشفى الى يسار مدخل المستعمرة الرئيسي هو بلدة على حدة ، لا تقل مساحة أراضيه عن ٢٠٠٠٠٠ متر مربع . شيدت فيه الابنية لسكن الاطباء والممرضين وغرف للعمليات وحجر عديدة وكبيرة فيها مئات من الاسرة لطول المرضى وقد قسمت تلك الاسرة الى ثلاث درجات ، درجة اولى ، ودرجة ثانية ، ودرجة ثالثة . وكان على المتعهد جنسن ان يدفع عن كل مريض في تلك الدرجات . ضمن في الدرجة الثالثة عشرة غروش في اليوم . وعمن في الدرجة الثانية ثلاثين غرشاً . وعمن في الدرجة الاولى خمسة وسبعين غرشا . ولكن الحكومة المصرية هي المسؤولة بنفقات المستشفى وقد قررت له في الميزانية اربعين الف جنيه للسنوات الاربع وكان في المستشفى ثلاثة اطباء ، وممرضتان ، عدا الترجمة والخدم . وكانت خدمة المستشفى من أجل وأقدس الاعمال الانسانية في ذلك المحيط . لانه لم يقتصر على خدمة الموظفين والعمال ، بل مد احسانه الى سكان المحيط ، فكانت تجري فيه معاينة مئات كل يوم ، عدا عمليات التوليد ، وعمليات الحوادث والآفات التي لاحصر لها . وقد جهزته الحكومة المصرية بكل ما يلزم من العلاجات والاجهزة اللازمة

(٦ : النقل) بحسب شروط التعهد بين جنسن والحكومة المصرية وجب ان يبنى السد للخزان بحجارة من النوع المعروف بالحوانيت . وكان يلزم ان تؤخذ تلك الحجارة من محاجر جبل السليمات الواقع شمالي الخرطوم نحو اربعين كيلو متراً . وجبل اولياء جنوبي الخرطوم نحو خمسين كيلو متراً . فالمسافة بين محجر السليمات وبين الخزان نحو تسعين كيلو متراً . لذا فد خط حديدي من جبل اولياء الى الخرطوم يتصل بالخط المؤدي الى السليمات . وقد مدت هذا الخط الحكومة السودانية فاقتت عليه ١٢٠٠٠٠ جنيه وكانت تتقاضى متعهدي الخزان قدراً معيناً من المال عن كل طن ينقلونه على الخط من حجارة وحدائد ورمال وادوات

وبعد وصول الخط الى محطة جبل اولياء تفرعت منه خطوط عديدة الى موقع الخزان بعضها على جسر (كبري) موقت فوق الماء ، وبعضها على الضفة الشرقية ، والضفة الغربية ، وبعضها في حوض النهر حيث اعمال البناء . وهذا الفرع من الاعمال له خطورته وقد اقيم اخصائيون على خدمته وملاحظته وادارة شؤونه

(٧ : الجسر) هو جسر موقت ، مد فوق مياه النهر من الشرق الى الغرب ، على دعائم خشبية هائلة من أمتن أنواع الخشب ، مدت فوقها جسور خشبية وخطوط حديدية فكانت طريقاً مزدوجاً للبشر والنقل فالماشي الى الجانبين والخط الحديدي في الوسط . وهذا الجسر لا بد منه لانشاء الخزان . وكان العمل يجري عليه نهاراً وليلا بلا انقطاع

كل المدة من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٧ . وعند الجسر كان في النيل « معديات » للمهندسين والمتعهدين . ولنقل الاشياء الخاصة التي لا يمكن تسييرها على الكبري . فكانت المعديات تعبر عباب الماء في كل ساعات النهار من الصباح الى المساء

﴿ ٨ : مركز حكومة ﴾ وكان لا بد لضبط النظام والفصل في القضايا بين عشرات الالوف من الناس — كان لا بد — من انشاء مركز حكومة فيه مفتش قضائي ومأمور وحكمدار وهيئة بوليسية وسجون وكان البوليس على قدم العمل في الخزان وفي السوق وفي المستعمرة وكانت القضايا الجنائية التي تنشأ بين العمال ترد الى ذلك المركز

﴿ ٩ : البريد والبرق ﴾ كذلك كان من اللازم انشاء فرع للبريد والبرق ، لقضاء حاجات تلك الالوف . وقد قسمت تلك الادارة الى ثلاثة فروع : البريد : والتلغراف : والتلفون . فكان البريد يحمل الجرائد والمجلات بأكثر من خمس لغات — العربية والانكليزية والايطالية واليونانية والالمانية والفرنسية وغيرها . ويقوم بواجب ألوف من التحاويل المالية كل شهر . وكانت ادارة التلفون قائمة على العمل ليل نهار ، وكذلك ادارة التلغراف . وكان توزيع البريد والبرقيات بالدقة في وقته حذراً من تعطيل المصالح ، لان هنالك ادارة الري وادارة الخزان وكلتاهما من الخطر بمكان

﴿ ١٠ : السلك (Wire) ﴾ وهو من أهم الاعمال التمهيدية التي أذكرها هنا . وفي ظني انه أغربها وأعظمها وأبدعها . بل هو من أبدع آي الفن الميكانيكي والعلوم الطبيعية . عقد السلك على أربع قوائم اثنتين على كل ضفة من ضفتي النيل على القائمة الواحدة ستون متراً ، مؤلفة من جسور « وشرحات » من الحديد وبين القائمتين تماماً كان السد المؤلف الخزان فكان السلك فوق السد تماماً . والغرض منه نقل الحجارة من الضفة الشرقية الى موضع البناء في حوض النهر او على الضفة الغربية وهناك محرك كهربائي (دينامو) كان يدير آلة متصلة بأسلاك حديدية ، ربطت بها جرادل كبيرة . يسع الجردل الواحد من الحجارة ما يزن ثلاثة اطنان . فكان العمال يملأون هذي الجرادل بالحجارة الضخمة ، فيحملها السلك محركاً بالكهربائية الى فوق حتى تصل الى السلك العالي . وحينذاك تسير على بكرات بقوة الكهربائية الى حيث يلزم . وهنالك تهبط الجرادل بقوة الكهربائية الى الارض ، فيفرغها العمال ، ثم تعود فترتفع بقوة الكهربائية وتعود الى الضفة الشرقية لاعادة ملئها بالحجارة . كان هذا العمل مستمراً كل زمان البناء . ولولاه لكان نقل الحجارة من الضفة الى حوض النهر من اشق الاعمال . وهذا الجهاز اعظم واتمن آلة استخدمت في بناء الخزان

عدا ما ذكرت من الاعمال التمهيدية كان هنالك «الكراكات» ، العاملة في نقل الركام في وسط النهر من جانب الى جانب . وهنالك سيارات عديدة للركوب والنقل . ومعمل للتحليل الكيميائي . وآلات لقطع الحجارة وصنع الخراسانة والاسمنت ، ولكل من تلك الفروع ادارات واقلام واخصائيون فاكتفي بالاشارة لتصوير الحال

٣ — السدّ الذي يكوّن الخزان

هنا نقطة دائرة المسعى ، وملتقى خطوطه ، ومنحنى محركاته . كان العاملون في الخزان نحو عشرة الآف منهم الفان يعملون في تقطيع الحجارة واعدادها في السليتات يتبع هذي الالوف اكثر من عشرة آلاف آخرين من نساء الموظفين والعمال ، واولادهم ، وخدمهم ، والتجار والبقالين والخياطين والغسالين والخبازين والصباغين والمقاولين الصغار وغير هؤلاء من المتعلقين بالهيئة العاملة . يسكن هؤلاء في ثلاث خلل (قرى) عدا الخيام ، فهنالك مجموع من البشر لا يقل عن عشرين الف نفس ، تحور جميعهم الخزان . تنظر الى السد من على ، فتحت نظرك مشهد روائي غريب واني اراه اغرب من حكايات الف ليلة وليلة . فهنالك اولا اربعمائة وثلاثون معمارياً أحنوا ظهورهم يبنون كل النهار ولكل من هؤلاء عمال ومناولون يقدمون له ما يلزمه من المواد . بل هؤلاء «الحالون» والحفارون والسقاؤون والملاحظون والمتعهدون والباعة المتجولون وكل هؤلاء تحت شمس السودان المحرقة بعضهم بالملابس الاوربية التامة وبعضهم نصف عراة او شبه عراة او عراة تقريباً ، حفاة الاقدام ، حاسرو الرؤوس والسواعد والصدور . هؤلاء يعملون على ما كبهم الحجارة الضخمة التي قد يعجز الحمار عن حملها . وهؤلاء يعملون «جرادل» الطين ، اوصفائح الماء ، او أكياس الرمال ، وآخرون يعملون في تفريغ العربات مما تحمل من المواد وآخرون يعملون في هندسة الحجارة بالمطارق الحاطمة ، وفي الوقت نفسه صفير القطار يصم الآذان ، وقعقعة السلك يحمل الجرادل ، واصوات «الكراكات» والادقال والجدائد والمطاحن والمطارق والكهربائية والسيارات . وترى العمال الوفاً يحيطون باربعمائة بناء يشيدون في بقعة واحدة ، وواعجباً مما ارى ان اولئك الالوف ، وقد احنوا للحمل ما كبهم ، وهم يسيرون صعوداً او نزولاً على سطح مائل في وسط الجلبة والضوضاء . مع ذلك لا يخطىء واحد منهم هدفه بل يسير الى المعمار الذي يتبعه هو ويناوله ما يحمل ولا يخطىء مع ان المعمارين متشابهون وهم مئات متجاورة — مع ذلك — يسير العمل بانتظام وهدوء وسكينة كأن معماراً واحداً في المكان

وترى الوفاً منهم مستريحين في فترة العمل يشربون الشاي . احصيت مرة على الهويس تحت نظري نحو عشرين جماعة منهم ، كل جماعة حول ابريق شاي وكل هؤلاء في بقعة صغيرة . فقس على ذلك سائر المحيط . اما حبلهم الجرار صباحاً حين يأتون الى العمل ، ومساء حين يعودون من العمل ، فحدث عنه ولا حرج . هنالك يوم الحشر والنشور ترى العميل الجارف من البشر من كل طبقات الخليقة وكل الوانها ، الصدر الى الظهر ، يدفع اللاحق السابق ، وقد اكتظت الاقدام على ذلك الجسر الغريب الاوصاف حتى انه يعسر على المرء الاصحاب من وسط ذلك التيار البشري ويخيل اليك انه لو رفع قدميه عن الجسر لظل سائراً في وسط الحشد لان الضغط الى الجانبين يضمن بقاءه سائراً محمولا

تنصرف تلك الالوف مساء الى ما آوى بعضهم للطبخ والنفخ وبعضهم للتدخين وقراءة الجرائد والروايات وبعضهم للتقاهي واللاهي وبعضهم لسمع الراديو والفونغراف وينتشر مئات منهم في عرض الفلاة تحت سماء السودان تتعون النفس بلطيف نسيمه وبعضهم يغط غطيطاً عالياً تسمعه من بعيد وبعضهم يعاقر الدخان او يقامر وبعضهم يصلي ويرسل التسابيح . على هذي الحال يبيتون الى الصباح حتى اذا كانت الساعة الخامسة صباحاً وقد صفر الصافر تنبعث تلك الالوف من لحوفها وتسير مواكب متراصة الى الخزان كأنها سائرة الى المقاتل . على هذي الحال استمر القوم أربع سنين

والآن أمامنا الخزان وقد تم بناؤه . فلنحدر عن الجبل، حيث بناية الري على ضفة النهر الشرقية . فأمامنا السد العظيم الفخم الذي مشيد بحجارة الجرانيت، ممتدًّا في عرض النهر من الشرق الى الغرب نرى أوله ولا نرى آخره في أراضي غربي النهر . طوله ٥٠٠٠ متر وعلوه ١٨ متراً وعرضه ٥ ½ متر وسطحه ٣٧٩ متراً فوق سطح البحر وأعلى منسوب مائه ٣٧٧ متراً وأوطأه ٣٧٠ متراً وأعظم عرض الماء حين امتلائه ٧٢٥٠ متراً وأضيقه ٢٠٠٠ متر حين انخفاض المياه ومتوسطه ٤٠٠٠ متر وهي تضمر ٣١٤٠٠٠ فدان مربع من الارض أو نحو ١٣١٨ ميلا مربعاً . وفي السد ١٧٨٠٠٠ متر مكعب من الحجارة الرملية و ٩٩١٠٠ متر مكعب من حجارة الجرانيت منها ١٧٨٠٠ متر مكعب منحوتة و ١١٥٠٠٠ متر مكعب من الاسمنت وزنها ٨٠٠٠٠ طن و ٣٠٠٠٠٠ متر مكعب من التراب ومجسم البناء ١٠٠٠٠٠ متر مكعب والركام ٢٨٤٥٠٠ متر مكعب وستائر الحديد ٨٠٠٠ طن . وتسير الآن على السد ٤٥٣ متراً على الضفة الشرقية وبعدها ٤٦٤ متراً هي السد الصامت الى الهويس ثم الهويس وعرضه ٦٠ متراً فيون الماء وهي ٦٠ عيناً منها ١٠ مقفلة و ٥٠ مفتوحة وبعداها كلها ٦٦٢ متراً بعدها السد الصامت الغربي ٢٤٤٥ متراً بالستائر الحديدية و ٨٦٧ متراً بدون الستائر

والستائر الحديدية جسور طويلة متداخلة طولها ٩ أمتار تغرز الى جانبي السد في الارض فتكوّن سورين بينهما بناء السد . وقد رأيتهم يدقونها في الارض بالمطارق الكهربائية وهي من أدق وأضبط صنوف البناء . والهويس طويل عريض بديع في وسطه مجاز السفن طوله بين البوابتين الحديديتين ٨٠ متراً وعرض الماء فيه ٢٢ متراً ومساحته كله ٣٦٨٠ متراً مربعاً ويحجز الخزان من مياه النيل ٣ ١٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب ويدخر منها قبلما تصل اسوان ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب ويصل اسوان ٢٢٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب وهي تكفي ري ٥٥٠٠٠٠ فدان

***

وقد كمل بناء السد في اول ابريل الماضي يوم الخميس الساعة ١٢ ظهراً ولم يبق الا أعمال تكميلية جزئية تنتهي بوقت قصير . وقد انصرف جميع المهاجرين وأكثر العمال ولم يبق الا عدد يسير منهم لانجاز ما تبقى وهو قليل

٤ — مغازي الخزان

رأينا ما هو الخزان . وعرفنا لماذا كان . وكم هي قفاته . وعدد عماله . وأوصاف قسامه فماذا يستفاد من كل ذلك ؟ ماذا ترى البصيرة وراء ما رأت الباصرة ؟ هذا هو البحث الجدير بشيخ مجلات العالم العربي . وأراني في الموقف القانوني اللائق بمؤرخ أقدس الجهود الانسانية . وأرى أمامي حقائق هي أجدر بالخلود من السدود والاهرام . ولا أراني أقوى على سردها كلها ، فأقتصر على الاشارة الى بعضها

أولا : ان هذا الخزان ظاهرة ارتقاء من الناحيتين العمرانية والاقتصادية . فلا تقوى أمة منحطة على ابرازه . وهو مجلى المبلغ السامي الذي أدركه الانسان في تطوره وارتقائه ومما يجلى لنا فيه

(١) فن العمار (٢) فن الهندسة (٣) فن الميكانيكا (٤) الفنون الطبيعية (٥) نواميس السائلات (٦) نواميس الكهربائية (٧) الري والمساحة وقواعد الاقتصاد (٨) الشركات التجارية (٩) المبادىء السياسية (١٠) الائتلاف الانساني والتعاون الاجتماعي

كل هذي المجالي على جلالة قدرها انما تصور لنا فرعاً واحداً من شجرة الزوح الباسقة. تلك الشجرة المباركة اصلها ثابت وفرعها

* * *

ثانياً : ارى في هذا المسعى العظيم « حرص الانسان على كيانه » . يحول النشاط الانساني في المحيط الكوني الى أبعد الآفاق محاولا ايجاد وسيلة ، او استنباط حيلة لضمان كيانه . والحرص على الكيان اول الغرائز الانسانية واولاها بالاهتمام . ومن هذا الاصل الاول تتفرع نوازع جمة كالتمدن والعمران والاقتصاد والنظام والاجتماع والشرع والتدين والشرف والوفاء والتآلف والتحالف والنجدة والايثار الخ .

فاذا اعترض الجهد الانساني عقبة في سبيله ، تحول دون فوزه بالكيان مباشرة او مداورة ، عمد الى التغلب عليها ، اما بشقها شقًّا كما فعل بنفق مجلون ، او بزحزحتها من السبيل ، او بالتفافه حولها والدوران بها بحيث يتسنى له استئناف سيره الاصلي كما فعل الانهار في مجاريها . والحاجة ام الاختراع . وان حيلة الانسان احتفاظاً بكيانه تؤلف تسعة اعشار مساعيه العمرانية . وهذا الخزان احدى المحاولات الانسانية لضمان الكيان . هو استغلال الماء لاجل الحياة

وما استلزمه انشاء الخزان من علم وفن وصناعة وسياسة انما هو مقياس ما بلغ الانسان من المستوى العمراني والمدني

ثالثاً : يجلى لنا في مسعى كالخزان « التضامن الانساني » والترابط الوثيق بين افراد

النوع ، ولاسيما بين السلف والخلف . مات بعض الذين كانوا يعملون في انشاء الخزان قبل انجازه . وسيموت اكثر الذين عملوا به دون ان يتناولوا شيئاً من ثمراته . والذين سيستغلونه ممن سيولدون هم اكثر جداً ممن يستفيدون منه الآن . فسيستغله مئات الملايين ممن سيولدون في وادي النيل في عشرات القرون . فسعي الالوف ، وبذل الملايين ، على عمل يستفيد منه الحفدة وحفدة الحفدة هو ما اسميه « التضامن الانساني » . فانا نبني ونغرس لمن بعدنا ، كما بنى وغرس لنا من كان قبلنا . هذا هو خط الارتقاء الصاعد ، مجلى النشوء البديع ، هو استمرار الطبيعة في مجراها لحفظ النوع وسلامة افراده من غوائل الفناء

سيغص وادي النيل بالذراري ، فتضيق بهم الارض على رحبها ، وتنضب الموارد على وفرتها ، فنرانا ملزمين باعداد المدات وتوفير الوسائل الواقية والضامنة لكات والوف السنين وهذي الجهود التعاونية لغز لا يفسر ، الا بانه « تضامن » . هذا هو الحل الصحيح لالغاز التعاون البشري ، منشؤه الفطرة ، ومنتهاه المدنية والارتقاء

***

رابعاً : الخزان في جبل اولياء حجة تثبت حق مصر في السودان هو حجة عملية راهنة لايقوى مراء على انكارها . هو صورة اعتراف انكلترا والحكومة السودانية بحق مصر في النيل وفي حوض النيل . والا استحال ان يؤذن لمصر ان تنشيء خزاناً كهذا في غير بلدها ، وهو خزان تنحصر فوائده في القطر المصري دون سواه من الاقطار . تحجز فيه المياه لمصر كما تحجز عربات السكة الحديدية لاصحابها . ولكن حجز المياه في خزان جبل اولياء ليس استئجاراً بل امتلاكا . فلم تستأجر مصر مياه النيل والمحيط حول جبل اولياء ، لاجل مسمى . بل هي صاحبة الماء وصاحبة المحيط حول ذلك الخزان . وقد أثبتت ملكيتها ذلك الموضع لاجل غير مسمى . وقد رهنت بنائها الخزان على انها صاحبة السودان ، او انها والسودان قطر واحد وعبارة الجرائد ان السودان جزء لا يتجزأ من وادي النيل . فالذين عارضوا في بناء هذا الخزان على اساس سياسي كانوا يكونون معقبين لو كان السودان بلداً اجنبيًّا . اما وقد اعترف الداني والقاصي بحقوق مصر «التاريخية والطبيعية» في السودان وفي النيل فقد فات اولئك المعارضين ان انشاء هذا الخزان هو كبصم الختم على الحجة من الطرفين . فلا يبقى ثمة مجال للمرء في ان السودان لمصر ومصر للسودان ، او انهما بلد واحد وهو افضل التعابير وأصدقها فليحرص على ذلك المصريون

***

خامساً : واخيراً : بقي ان هذا الخزان عجلى ما بلغ المصري من الارتقاء . الجرائد عجلى بطبيعة الامة وخلقها . ولكن الجرائد قد تكون عجلى غير طبيعي ، وقد تكون عجلى زائفاً او ملتبساً فلا يتمكن غير ثاقب النظر من ادراك الشأو الذي بلغته الامة بدليل جرائدها . اما الخزان فعجلى طبيعي لا ريب فيه ولا التباس . فقد بناه اربعمائة وثلاثون مهاراً لم يكن

فيهم واحد غير مصري . وقد شيد باموال المصريين وادارتهم وحكمهم . فلم يبق ثمة ريب في علو كعب المصري . وكان المهندس المصري صاحب الكلمة في الخزان . فاذا تقول اذا عرفت ان هذا الخزان هو أمتن الخزانات بناء واقلها نفقة ؟ أولا ترى ان ذلك بينة ارتقاء المصري في اكثر من فرع واحد في شجرة العمران ؟

كان في جبل اولياء مئات من المصريين من مهندسين وملاحظين وكتاب وارباب ادارة وكان هؤلاء في احتكاك دائم بعضهم بالبعض الآخر وبالانكليز . والاحتكاك المستديم في دائرة العمل لا يترك مجالا للتصنع والزيف . فاذا كان من المصري ومن الادارة المصرية؟ هل حدث بين المصري والانكليزي خصام او جفاء؟ وهل كان المصري دون اخيه الاوربي خلقاً ورجولة ؟ وهل كان في ادارة المصري شيء من التشويش والترطم ؟ لا وايك . سل عنها خبيراً . فقد لاصقتهم سنين : ووقفت على امرهم في حالي رضاهم وبطشهم . فلم ار الا « ما يزين » . لم تكن هنالك ثغرة في سور الادارة المصرية . ولا نقص في خلقه ، ولا خلل في علاقاته . اربعة اعوام مرت ولم يحصل مشكل في الادارة او العلاقات ، لا بين المصري والمصري . ولا بينه وبين اخيه الاوربي . زد على ذلك انا لم نسمع ان احداً من اولئك المئات اتى امراً ادًّا . بل كانوا جميعاً مثلا في المحامد والاخلاق ، من اكبر موظف الى اصغر تابع . وأتموا اعمالا من اجل الاعمال وأوفرها خطراً ، ولم يتركوا الا ما يستوجب الثناء والاعتبار ، من الاجنبي قبل الوطني

***

لقد طفت حول الكرة الارضية نحو خمسة اعوام ، ورأيت الشيء الكثير من بدائع المشاهد ومفاخر الامم ، في كل قطر وتحت كل سماء ، على اني لا اذكر مشهداً ابدع منظراً وأشرف مخبراً من رؤيتي حلقة المهندسين في جبل اولياء حول زعيمهم المهندس المقيم عبد القوي بك احمد . وسمعت اشياء كثيرة ترفع الرأس ولكني لم اسمع افضل من اجماعهم على حبه واحترامه وتأييده في كل اجراءاته . فهذا التفاهم بين الرئيس والمرؤوس ، وهذا الاجماع بين التابعين في شأن متبوعهم ، مجلى ارتقاء وتسام لا يمكن الزيف محاكاته

اما النزاهة التي تجلت في بناء هذا الخزان من جانب المهندس المصري مما يرفع الرأس كثيراً . هنا لا معارضة ولا اعتراض . ملايين من الجنيهات أنفقتها مصلحة الري في بناء هذا الخزان ، وكل جنيه ذهب في محله . ولم يتسرب منها شيء الى الجيوب . ولو ان المجال يأذن لي بأكثر من ذلك لما تلكأت . ولكن اللبيب تكفيه الاشارة . فقد ضرب المصري الرقم الاعلى في النزاهة والاتقان في بناء هذا الخزان فلم يبق للمنصف الا احناء الهامة امام هذا المجلى البديع الذي لسان حاله يقول :

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

جبل اولياء